المواطنة في المنظور الإسلامي
دراسة تأصيلية من خلال السيرة النبوية

بقلم: أ . محند عزوق

مدير الدراسات، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف

مقدمة:

على الرغم من أن مصطلح «المواطنة» من المصطلحات المعاصرة التي لا نجد لها ذكرًا في نصوص الكتاب والسنّة والتراث الفقهي الإسلامي في العصور التأسيسية الأولى، إلاّ أن فكرة المواطنة التي تعني العضوية في الأمّة موجودة في الفكر الإسلامي.

ومدلولات مصطلح «المواطنة» المتمثلة في حبّ الوطن والدفاع عنه والتمتع بالحقوق وأداء الواجبات تشتمل عليها نصوص القرآن والسّنة النبوية الشريفة، خلافًا لما ذهب إليه عدد من الكتّاب والمفكرين العرب الذين قالوا بأن المواطنة ليست جزءًا من التراث العربي الإسلامي، متكئين في دعواهم على مزاعم أهمها:

أولا: خلو المعاجم والقواميس العربية من تعريف لمفهوم المواطنة، وسيأتي الجواب عن ذلك في البحث من خلال تحرير محل النزاع في المواطنة كمصطلح يحاكي اللفظ وبين المواطنة كمفهوم يحاكي الفكرة من جهة، ومن خلال عرض التعاريف الاصطلاحية في أبعادها السياسية والاجتماعية والقانونية وبيان مدى توافقها مع ما جاءت به الشريعة الإسلامية في هذا الباب من جهة أخرى.

ثانيا: تقليد بعض المستشرقين الذين عملوا على صياغة أوضاعنا وتصوراتنا خلافا لما كانت عليه في الواقع، ومن ذلك ما ذهب إليه «برنار لويس» إذ اعتبر بأن: «مفهوم المواطنة في الفكر العربي مفهوم غير أصيل إن لم يكن غريبًا، وإن سبب غياب كلمة «مواطن» في اللغة العربية واللغات الأخرى الفارسية والتركية يرجع إلى غياب فكرة المواطن كشريك وفكرة المواطنة كعملية مشاركة».

وبما أن السيرة النبوية هي التجربة التطبيقية لتعاليم الإسلام في سياقاتها التاريخية والسياسية والاجتماعية فإنني سوف أتناول مفهوم المواطنة من خلال التجربة الإسلامية في عصورها التأسيسية الأولى، لنبين كيف تمكن سيدنا رسول ﷺ من تحقيق المواطنة بين مكونات المجتمع المدني (مسلمين، يهود، مشركين) المختلفين دينيًا عرقيًا وثقافيًا وطبقيًا، وكيف جعل المواطنة حق مكفول بنص وثيقة المدينة التي تعد الدستور الناظم لفكرة المواطنة والعيش المشترك، وثانيًا من خلال نص اتفاقية الصلح التي عقدها رسول الله ﷺ مع نصارى نجران.

كما يبين هذا البحث أصالة مفهوم المواطنة في المنظور الإسلامي ويؤكد بأن غياب المفهوم عن السياق اللغوي لا يعني غيابه عن السياق الثقافي والمعرفي، مستندا في ذلك على التجربة النبوية المباركة من خلال وثيقة المدينة التي تعد الوثيقة التأسيسية الأولى في مجال المواطنة حيث تستأثر الدولة بالعلاقات بين مكونات المجتمع الواحد بعيدا عن الدين والعرق واللون، وتضع المصالح العليا للدولة كأمن المدينة وحمايتها فوق كل اعتبار وترسي المساواة أمام القانون بين سكان المدينة لا فرق في ذلك بين مسلم وغيره[1].

خطة البحث

المبحث الأول: مفهوم المواطنة، تناول التعريف اللغوي والاصطلاحي للمواطنة مبرزًا المفاهيم السياسية والاجتماعية والقانونية ونقدًا للتعاريف.

المبحث الثاني: الفرق بين الوطنية والمواطنة.

المبحث الثالث: أهمية المواطنة من الناحيتين الشرعية والاجتماعية.

المبحث الرابع: المواطنة كمفهوم في المنظور الإسلامي.

المبحث الخامس: التأصيل الشرعي للمواطنة.

المبحث السادس: النموذج التطبيقي للمواطنة من خلال وثيقة المدينة المنورة واتفاقية نجران.

المبحث السابع: علاقة المواطنة بمفهوم أهل الذمة.

الخاتمة تناولت النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: مفهوم المواطنة

يتناول هذا المبحث التعريف اللغوي والاصطلاحي لمفهوم المواطنة كعملية أولى يتطلبها تأصيل المسألة، ويبين بأن غياب المفهوم في السياق اللغوي لا يعني غيابه في السياقين الثقافي والمعرفي إذ لا مشاحة في الاصطلاح، وسوف يتجلى من خلال عرض التعاريف الاصطلاحية كيف أن مضامينها تحفل بها نصوص الشريعة الإسلامية.

أولا: تعريف المواطنة

لغةً:

إذا كانت المواطنة كلمة مشتقة من كلمة وطن، والوطن هو محل الإنسان[2]، والوطن هو المنزل الذي تقيم به، وهو موطن الإنسان ومحله... ووطن بالمكان وأوطن أقام، وأوطنه اتخذه وطنًا والمواطن تفعيل فيه[3].

فإن هذا الاشتقاق المذكور ظهر

حديثا ولم يكن موجودا في المعاجم والقواميس.

وكلمة «مواطنة» على صيغة مفاعلة هي ترجمة للكلمة الفرنسية «Citoyenneté»، وللكلمة الإنجليزية «Citizenship». وتدل على العلاقة التفاعلية بين الإنسان ووطنه[4].

وبهذا يتبين بأن المعنى اللغوي للمواطنة أصيل في الفكر الإسلامي إذ ما خلق الإنسان في الأرض إلا من أجل أن يكون متفاعلا مع بني جنسه، ولذلك جعل الله تعالى البشر في حاجة إلى بعضهم البعض، والعبرة بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني، فإذا كان الاسم جديدا فإن المقصود هو المسمى.

اصطلاحًا:

يقصد بالمواطنة من الناحية الاصطلاحية تمتع الأفراد الذين ينتمون إلى وطن واحد ومساواتهم أمام الواجبات والقانون، دون تمييز بسبب العرق أو الدين أو اللغة. وقيل بأنها تعريف الفرد في مواجهة الدولة من ناحية الحقوق والواجبات[5]، وقد ذهب الدكتور علي ليلة إلى أن: «الدولة العربية لم تلعب دورًا في بلورة مفهوم المواطنة»[6]، لاعتبارات منها حداثة نشأة الدولة القُطرية واستمرار النزعة الأبوية، وكذا إدراكات وظروف المجتمع الذي تنظمه الدولة، وإذا كان الدكتور يقصد المفهوم في شكلانيته الحديثة فإن المصطلح فعلا قد ظهر في عصر النهضة الأوروبية، أما إذا كان يقصد المفهوم من حيث المعاني المشتملة فيه، فإن وثيقة المدينة المنورة هي الوثيقة التاريخية الأولى التي أرست قواعد المواطنة والتعايش المشترك.

وسوف أستعرض فيما يأتي التعاريف الاصطلاحية للمواطنة في أبعادها الاجتماعية والسياسية والقانونية:

أولا: المفهوم الاجتماعي للمواطنة

في علم الاجتماع استمدت نظريات المواطنة المعاصرة أصولها من كتابات «مارشال»، الذي عرّف المواطنة:« بأنها تلك المكانة التي يتمتع بها شخص ما باعتباره عضوًا كامل العضوية في مجتمع معين.

وتشير المواطنة الاجتماعية إلى حق الاستمتاع بمستوى ملائم من الحياة، وهي تتجسد في نظام الرفاهية، والأنساق التعليمية في المجتمعات الحديثة»[7].

وكلّما تحققت المواطنة بمعناها الشامل والكامل كلما أسهم ذلك في ترسيخ الوعي الجمعي تجاه الوطن، وكلما حدث العكس كلما أضعف ذلك الشعور الجمعي بالولاء والانتماء[8].

ثانيا: المفهوم القانوني للمواطنة

هي علاقة أو رابطة قانونية بين الدولة والأفراد الذين يحملون جنسيتها بموجبها تلتزم الدولة بحماية مواطنيها سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وأمنيًا عن طريق الدستور والقانون، ويلتزم المواطنون بالولاء للدولة واحترام قوانينها كطريق للحصول على حقوقهم وحرياتهم[9].

والمواطنة كمفهوم قانوني ترتبط بالمواطن ككائن اجتماعي له حقوق وعليه واجبات تفرضها طبيعة انتمائه إلى وطن معين، مع الالتزام بالواجبات العامّة مثل دفع الضرائب والحفاظ على الأملاك العمومية والدفاع عن الوطن[10]، وإظهار الولاء للمجتمع والنظام السياسي، والمشاركة في الحياة المدنية والسياسية.

وهي بهذا المعنى «المؤسسة الرئيسية التي تربط الأفراد ذوي الحقوق بمؤسسات الحماية للدولة»[11]، وتدّل على التزامات متبادلة بين الفرد

والدولة، إذ يركز على البنية القانونية للمواطنة.

كما برز اتجاه جديد بزعامة «بولدنغ» و«نوسباون» يدعو إلى المواطنة العالمية لمواجهة التحديات الجديدة التي عجزت الهوية القومية عن مجابهتها، بحكم أنه لا توجد دولة في العالم تستطيع أن تعمل بمعزل عن عالم اليوم، لذا فالمواطنة يجب أن تحوي كلا من العنصرين القومي والعالمي[12].

وهذا لإحلال هوية جديدة محل الهويات المختلفة التي تنشأ على أساس: الديانة، والجنس، والعرق، وتؤكد أن «الهوية المدنية» مشاع لكل المواطنين وهي التي تضمن المساواة للجميع[13].

رابعًا: المفهوم السياسي للمواطنة

المواطنة ببساطة شديدة هي الدور الإيجابي للفرد بصفته مواطنًا، وأكد الفيلسوف «روسو» على مفهوم المواطنة معلنًا أنه يعتمد على دعامتين أساسيتين هما: المشاركة الإيجابية من طرف الفرد في عملية الحكم، والمساواة الكاملة بين أبناء المجتمع الواحد كلهم[14].

وعرّفت بأنها «مكانة أو علاقة اجتماعية تقوم بين شخص طبيعي وبين مجتمع سياسي (الدولة)، ومن خلال هذه العلاقة يقدم الطرف الأول الولاء، ويتولى الطرف الثاني الحماية، وتتحدد العلاقة بين الشخص والدولة بالمساواة أمام القانون (الوضعي) من خلال هيمنة الدولة القومية»[15].

وعرفتها دار المعارف البريطانية بأنها: «علاقة بين فرد ودولة كما يحددها قانون تلك الدولة وبما تتضمنه تلك العلاقات من واجبات وحقوق في تلك الدولة»[16].

نقد التعاريف:

نلاحظ من كل التعاريف السابقة

أنها تدلّ على أنه لقيام المواطنة لابد من طرفين في حالة تفاعل مستمر.

الطرف الأول هو الفرد الذي يسكن في بقعة جغرافية معينة ويلتزم بالواجبات المسنودة إليه باعتباره ينتمي لتلك الدولة بغض النظر عن دينه ولغته وعرقه، والطرف الثاني هو الشخص المعنوي الذي يسمّى الدولة أو الوطن، الذي بدوره يوفر الحماية للفرد، ويلتزم بتوفير الحقوق الطبيعية للفرد دون تميز تحت أي سبب كان.

كما أن كلّ تعريف من التعاريف ركّز على بنية من بنى المواطنة كل من زاوية اختصاصه ومجال اهتمامه.

والمتأمل في هذه التعاريف يجد بأن المعاني الواردة فيها والبنى التي تقوم عليها تتفق مع مفهوم المواطنة في المنظور الإسلامي، بل إن المواطنة في الإسلام تجمع بين كل هذه البنى التي تفرقت في التعاريف السابقة، وقد أحصى الأستاذ ماهر عياد مجالات الألفاظ حسب ورودها في صحيفة المدينة المنورة، فصنفها كالآتي:

-المجال العقائدي: 15 %

-المجال الأخلاقي 21،44 %

- المجال الاجتماعي 28،66 %

-المجال السياسي 22،98 %

-المجال الاقتصاد 3،28 %

- المجال القضائي 7،65 %[17]

ومن خلال توزيع الألفاظ الواردة في الصحيفة حسب المجالات المبينة بالنسب المئوية يتبين لنا أن صحيفة المدينة قد أرست قواعد المواطنة على كل الأبعاد والبنى العقائدية والأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والقضائية، كما نقرأ من خلال هذه الأرقام أن 15 % هي نسبة الألفاظ الواردة في مجال العقيدة، و75 % من الألفاظ تتعلق ببقية البنى والأبعاد ما

يؤكد أن العقيدة وإن كانت مهمة في حياة المجتمعات إلا أن المواطنة لا تبنى على أساسها لكن تبنى على قاعدتين أساسيتين هما:

- الأولى هي التجانس الاجتماعي المجرد من الطائفية والعنصرية وكلّ ما من شأنه أن يشقّ الصف ويهد الوحدة الاجتماعية.

- والثانية هي سعي الجميع لتحقيق أهداف المجموعة الاجتماعية.

وتسعى المواطنة إلى تحقيق هدفين هما:

1 - تعزيز الولاء والانتماء عند الجميع.

2 - مشاركة الجميع في اتخاذ القرارات المصيرية المتعلقة بحاضر الوطن ومستقبله.

فالمواطنة بهذه الدلالات والمفاهيم ليست مجرد تعبير عن حقوق وواجبات جامدة تحكم أُطر الحياة داخل إقليم الدولة، بل هي انتماء عضوي في المجتمع وارتباط فكري ووجداني يقيم الحق والعدل والمساواة والخير بين أفراد المجتمع في ظل القواعد القانونية التي تحكم التعامل بين المواطنين الذين يستوون كلهم أمام هذه القواعد[18].

المبحث الثاني: تحرير محل النزاع حول مفهوم المواطنة

تحرير محل النزاع في هذه المسألة يستلزم تحديد المراد من البحث بدقة، فإذا كان المقصود هو البحث عن المصطلح المعبر عن اللفظ فإن مصطلح «المواطنة» لم يرد في القرآن والسنّة، ولم يظهر في أدبيات الفكر الإسلامي وعصوره التأسيسية الأولى بل ظهر في العصور المتأخرة مع كتابات العلامة رفاعة الطهطاوي، أما إذا كان المقصود هو المفهوم الذي يحاكي الفكرة بوصفها علاقة عضوية بين

الفرد والدولة وما يترتب على ذلك من حقوق طبيعية وغير طبيعية والتزامات بالواجبات كالدفاع عن الوطن ودفع الضرائب واحترام القوانين والتشريعات، وبوصفها انتماء مع ما يقتضيه الانتماء من محبة حماية وغيرة، فهذا ممّا لا شك أنه موجود بشدة في نصوص القرآن والسنّة النبوية الشريفة[19]، وتعد صحيفة المدينة المنورة المؤسس الأول لهذه الفكرة بغض النظر عن التسميات اللفظية.

وبناء على هذا يتبين تهافت من زعم من الكتاب والمفكرين العرب ومن قبلهم من المستشرقين بأن المواطنة لا أصل لها في الوعي العربي والإسلامي، وبأن الفقه الإسلامي قديمه وحديثه لا يتحمل فكرة المواطنة الغربية التي تعني مساواة حاملي جنسية وطن ما في جميع الحقوق والواجبات بغض النظر عن أديانهم وأجناسهم وأعراضهم وأنسابهم[20]. ويكفي للرد على هذه الدعوى أن ننقل ما قاله المستشرق الروماني المنصف ك. جورجيو إذ قال عن صحيفة المدينة بأن: «... هذا الدستور قد دون بشكل يسمح لأصحاب الأديان الأخرى العيش مع المسلمين بحرية، ولهم أن يقيموا شعائرهم حسب رغبتهم، ومن غير أن يتضايق أحد الفرقاء[21].

وخفي على من ينفي وجود المواطنة في الفكر الإسلامي أن العبرة بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني فمدلولات مصطلح «المواطنة» المتمثلة في حبّ الوطن والدفاع عنه والتمتع بالحقوق وأداء الواجبات تشتمل عليها نصوص القرآن والسّنة النبوية الشريفة، والحاصل أن المنكرين لوجود المواطنة في التراث العربي والإسلامي نكأتهم تمثلت في أمرين اثنين أولا:

خلو المعاجم والقواميس العربية من تعريف لمفهوم المواطنة، وقد اجبنا عن هذا الإشكال بوضوح، ثانيا: تقليد بعض المستشرقين الذين عملوا على صياغة أوضاعنا وتصوراتنا خلافا لما كانت عليه في الواقع.

المبحث الثالث: الفرق بين الوطنية والمواطنة

أولا: الوطنية

هي شعور الفرد بحبه لمجتمعه ووطنه واعتزازه بالانتماء إليه، واستعداده للتضحية من أجله فالوطنية شعور قلبي ووجداني يترجم في المحبة والولاء والميل والاتجاه الإيجابي والدافعية الذاتية للعمل الخلاق الذي يستهدف رفعة الوطن[22]. فهي عبارة عن نزعة ورابطة روحية مطلوبة في مواجهة الخارج[23].

ثانيا: المواطنة

هي الجانب السلوكي الظاهر المتمثل في الممارسات الحية التي تعكس حقوق الفرد وواجباته تجاه مجتمعه ووطنه، والتزامه بمبادئ المجتمع وقيمه وقوانينه، والمشاركة الفعّالة في الأنشطة والأعمال التي تستهدف رقي الوطن والمحافظة على مكتسباته[24]، وهي وضعية قانونية متكاملة مطلوبة في الداخل[25].

المبحث الرابع: أهمية المواطنة من الناحيتين الشرعية والاجتماعية

تأتي أهمية المواطنة من كونها تركز بالدرجة الأولى على المواطن باعتباره اللبنة الأساسية في عمليات الوحدة والاستقرار والبناء، وقد ساهمت المواطنة باعتبارها مبدأ كليًّا تشترك في تشكيله جميع الأنساق الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية

في تطوير المجتمعات والارتقاء بالدولة إلى المساواة والعدل والإنصاف، وتحقيق الديمقراطية التشاركية وضمان الحقوق والواجبات، وعليه فهي ذات أهمية كبيرة لما يأتي:

- تعمل على رفع الخلافات ومظاهر الاختلافات الواقعة بين مكونات المجتمع في سياق التدافع الحضاري وتذهب إلى تدبيرها في إطار الحوار بما يساهم في تقوية لحمة المجتمع.

- تحفظ للمواطن حقوقه، وتوجب عليه واجبات تجاه غيره من المواطنين وتجاه دولته.

- تضمن المساواة والعدل والإنصاف بين المواطنين أمام القانون، وأمام الوظائف العامّة والمناصب في الدولة وأمام توزيع الثروات العامّة، وكذلك أمام الواجبات.

- تعترف بالتنوع والتعدد العقائدي والعرقي واللغوي والديني والسياسي والثقافي والطائفي والاقتصادي والاجتماعي ...الخ.

- تمكن المواطن من تدبير الشأن العام من خلال النظام الانتخابي ناخبًا ومنتخبًا للمؤسسات المنتخبة التي تعبر عن دولة القانون والمؤسسات.

- تضمن حقوق الإنسان في المجتمع والوطن والدولة، لكونها تنتقل بالحق الإنساني إلى حق المواطنة عبر تشريعه وتقنينه[26].

المبحث الخامس: المواطنة في المنظور الإسلامي

على الرغم من أن مصطلح «المواطنة» من المصطلحات المعاصرة التي لا نجد لها ذكرًا في نصوص الكتاب والسنّة والتراث الفقهي الإسلامي في العصور التأسيسية الأولى كما سبق بيانه إلاّ أن فكرة المواطنة التي تعني العضوية في الأمّة موجودة في الفكر الإسلامي.

ومدلولات مصطلح «المواطنة» المتمثلة في حبّ الوطن والدفاع عنه والتمتع بالحقوق وأداء الواجبات تشتمل عليها نصوص القرآن والسنّة النبوية الشريفة، خلافًا لما ذهب إليه عدد من الكتاب المفكرين العرب[27]، بأن المواطنة ليست جزءًا من التراث العربي الإسلامي مقلدين في ذلك ما قاله المستشرق «برنارد لويس» وغيره من أن: «مفهوم المواطنة في الفكر العربي مفهوم غير أصيل إن لم يكن غريبا، وإن سبب غياب كلمة مواطن في اللغة العربية واللغات الأخرى الفارسية والتركية يرجع إلى غياب فكرة المواطن كشريك وفكرة المواطنة كعملية مشاركة»[28].

ففي القرآن الكريم نجد قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم ﷺ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[29]، وهذا يدلّ على ما يفيض في قلب سيدنا إبراهيم u لوطنه وعشيرته، ودعا له بالاستقرار ووفرة الرزق.

وفي السنّة النبوية المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم قوله مخاطبًا مكة المكرمة حينما أذن له بالهجرة: «وَاللَّهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ»[30]، قال السهيلي: «وفي هذا الخبر ما جُبلت عليه النفوس من حبّ الوطن والحنين إليه»[31].

كما أن «المواطنة» حاضرة في التراث العربي والإسلامي بصورة واضحة وجلّية، ففي أدبيات التراث العربي نرى هذا المفهوم شائعًا من خلال الحديث عن حبّ الوطن والموطن والاشتياق له والحنين لأجله وإلى مكان إقامة الإنسان، ومن ذلك

قول ابن الرومي في قصيدة وجهها إلى سليمان عبد الله يستعديه على رجل من التجار أجبره على بيع داره:

ولي وطن آليت أن لا أبيعه

وأن لا أرى غيري له الدهر مالكا

إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم

عهود الصبا فيه فحنوا لذلكا[32]

فالمواطنة في المنظور الإسلام تضمن لجميع المواطنين حقوقهم المتمثلة بحقوق الإنسان لقيامها على قاعدة التسامح، فهي تحترم الواقع وليست مجرد شعارات، وهي أداة بناء واستقرار، لا وسيلة تهديم وتفريق إنّما هي تعتمد أساسًا على الحرية والمساواة[33]، وتقوم على البنى السياسية والاجتماعية والقانونية التي سبق ذكرها في التعاريف السابقة، وهو ما دلت عليه بنود صحيفة المدينة التي نستعرضها في مبحث مستقل.

المبحث السادس: التأصيل الشرعي للمواطنة

ينبع التأصيل الشرعي لفكرة المواطنة من العناصر الآتية[34]:

أولا: وحدة الأصل الإنساني

وحدة الأصل الإنساني قررها الإسلام، فالله سبحانه وتعالى خلق الناس جميعًا من نفسٍ واحدة، وكلّهم في الإنسانية متساوون، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأسود على أبيض، إلا بالتقوى، هكذا يرفع الإسلام مبدأ المساواة بين النّاس[35].

ثانيا: وحدة المصالح المشتركة

إن الوطن وعاء للمواطنة، ويشترك الناس في إطار الوطن في المصالح والآمال والآلام وهو ما يدفعهم إلى الوقوف صفا واحدا لرفع كيان الوطن والارتقاء به إلى مصاف طموح جميع المواطنين.

ثالثا: الإسلام دين العدل والحق

قال ابن القيم-حمه الله تعالى-: «الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد، في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن دخلت فيها بالتأويل»[36].

ولا شك أن المواطنة في مفهومها الإسلامي توافق المصلحة والحكمة وتنشد العدل والرحمة.

رابعا: ضرورة الاجتماع البشري:

الاجتماع البشري فطرة إنسانية فطر الله النّاس عليها، وحاجة الناس للمشاركة الوجدانية والتعاون في شتى المجالات أمر تتطلبه خلقة الإنسان التي قال الله تعالى عنها: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾[37]، أي أنه بحاجة دائمة إلى عون الآخرين، كما أكدت الآيات القرآنية على ضرورة التآلف والتعارف بين مختلف الشعوب والقبائل في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[38].

وقد أولى الإسلام للأرض بمعناها الجغرافي أهمية معتبرة، فأمر الإنسان بعمارتها واستخلافها وهذا للأرض بصفة عامّة فمن باب أولى يكون للأرض الّتي نشأ الإنسان وعاش فيها شأن خاص، كحقوق النّصرة والمساعدة والتّعاون، ومن هذه الصّلات والواجبات نشأت فكرة المواطنة بين أهل البلد الواحد وان اختلفت أنسابهم وأديانهم[39].

المبحث السابع: النموذج التطبيقي للمواطنة من خلال

وثيقة «المدينة المنورة» و«اتفاقية نجران»

إنّ الحديث عن المواطنة في المنظور الإسلامي يتجلى من خلال التطبيق النبوي في «صحيفة المدينة»، وهي المعاهدة التي كتبها رسول الله ﷺ لتنظيم العلاقة بين مكونات المجتمع المدني (مسلمين، يهود، مشركين) المختلفين دينيًا عرقيًا وثقافيًا وطبقيً، فالمواطنة حق مكفول بنص «وثيقة المدينة» التي تعدّ الدستور الناظم لفكرة المواطنة والعيش المشترك.

ومن جانب آخر تضع وثيقة المدينة أساسًا جديدًا لحق المواطنة، لا يقوم على قرابة الدم أو صلة العقيدة، وإنّما يتكون حق المواطنة في عنصرين أساسيين هما:

الأول- هو الانتماء إلى الإقليم.

والثاني- هو الوفاء بالالتزام.

وسوف أتناول هذا المبحث من خلال وثيقة المدينة ومن خلال اتفاقية النبي ﷺ مع نصارى نجران.

أولاً: المواطنة في وثيقة المدينة المنورة:

وثيقة المدينة هي الكتاب الذي وضعه النبي ﷺ لضبط العلاقات بين المهاجرين والأنصار، ووادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم، وتعتبر أول وثيقة تاريخية دستورية تنظم الحياة المدنية بين المواطنين، يرجع إليها في كتب السيرة النبوية.

وقفات مع ما جاء في نص الوثيقة: من أهم ما يستشف من وثيقة المدينة ما يأتي:

1 - تحديد مفهوم الأمّة:

ميزت الصحيفة بين نوعين من أنواع الأمّة، فالأولى هي التي تقوم

على أساس وحدة الدين والعقيدة، والثانية هي التي تقوم على أساس الانتماء إلى دولة واحدة[40]. وجعلت من هذه الثانية أساس المواطنة.

- الأمّة التي تقوم على أساس العقيدة والأخوة في الدين:

ورد في عدة نصوص من الوثيقة منها البند رقم 2: «**إنهم – أي المؤمنون- أمة واحدة من دون الناس**» والبند رقم 15: «**المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس**»، ثم جاء التفصيل بعد ذلك عمليا في البنود السبع الموالية[41]:

17 - وَإِنّ ذِمّةَ اللّهِ وَاحِدَةٌ يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ.

18 - وَإِنّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ دُونَ النّاسِ.

19 - وَإِنّهُ مَنْ تَبِعَنَا مِنْ يَهُودَ فَإِنّ لَهُ النّصْرَ وَالْأُسْوَةَ غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصَرِينَ عَلَيْهِمْ.

20 - وَإِنّ سِلْمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ لَا يُسَالَمُ مُؤْمِنٌ دُونَ مُؤْمِنٍ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ إلّا عَلَى سَوَاءٍ وَعَدْلٍ بَيْنَهُمْ.

21 - وَإِنّ كُلّ غَازِيَةٍ غَزَتْ مَعَنَا يُعْقِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا.

22 - وَإِنّ الْمُؤْمِنِينَ يُبِيءُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِمَا نَالَ دِمَاءَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ.

23 - وَإِنّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتّقِينَ عَلَى أَحْسَنِ هُدًى وَأَقْوَمِهِ.

- الأمّة التي تقوم على أساس الانتماء والولاء للوطن:

والأمّة بالمفهوم السياسي لا تقتصر على السكان المسلمين للمدينة، فالمدلول السياسي للأمّة يختلف عن المدلول الاعتقادي وهو ما نصت عليه البنود رقم 29: «وَإِنّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِيْنِ دِينُهُمْ مَوَالِيهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ إلّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ فَإِنّهُ لَا يُوتِغُ إلّا نَفْسَهُ

وَأَهْلَبَ يْتِهِ». ثم مدّ النّص ليشمل القبائل الأخرى كما في المواد:

30 - وَإِنّ لِيَهُودِ بَنِي النّجّار ِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْف.

31 وَإِنّ لِيَهُودِ بَنِي الْحَارِثِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ.

32 - وَإِنّ لِيَهُودِ بَنِي سَاعِدَةَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ.

33 - وَإِنّ لِيَهُودِ بَنِي جُشَمٍ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ.

34 - وَإِنّ لِيَهُودِ بَنِي الْأَوْسِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْف.

35 - وَإِنّ لِيَهُودِ بَنِي ثَعْلَبَةَ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، إلّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ فَإِنّهُ لَا يُوتِغُ إلّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ.

36 - وَإِنّ جَفْنَةَ بَطْنٌ مِنْ ثَعْلَبَةَ كَأَنْفُسِهِمْ.

37 - وَإِنّ لِبَنِي الشّطِيبَةِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، وَإِنّ الْبِرّ دُونَ الْإِثْمِ.

38 - وَإِنّ مَوَالِيَ ثَعْلَبَةَ كَأَنْفُسِهِمْ.

39 - وَإِنّ بِطَانَةَ يَهُودَ كَأَنْفُسِهِمْ.

تدل هذه النصوص على أن المسلمين واليهود كلٌّ منهما أمّة يشكلان أمة سياسية واحدة، وهذا ما يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام: «**أمّة مع المؤمنين**» ولم يقل: «**أمّة من المؤمنين**» والمعية تقتضي المغايرة[42].

2 -تحديد مفهوم المواطنة:

وقد شكل مجتمع المدينة النموذج الأمثل لمجتمع التعاقد على أساس الاشتراك في حقوق المواطنة وواجباتها بقطع النظر عن المعتقدات الخاصة بالمواطنين[43].

فالمواطن هو كل مقيم على إقليم الدولة مسلما كان أو غير مسلم لأن المواطنة لا تستلزم وحدة العقيدة ولا وحدة العنصر وهو ما يقرره البند... «لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم»[44].

وتبني الوثيقة «المواطنة» على أبعاد مختلفة:

- **البعد السياسي العسكري:** كما في البند رقم 37: «**وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة**».

- **البعد الاجتماعي:** «وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم».

- **البعد القانوني القضائي:** «وأن النصر للمظلوم».

وفي كل هذه الأبعاد يشترك فيها المسلمون واليهود والمشركون وكل من لحق بالصحيفة بناء على البنود 25- 35 التي تعتبر اليهود أمة واحدة مع المؤمنين[45].

ثانيًا: اتفاقية الصلح مع نصارى نجران:

ومن وقائع السيرة النبوية العطرة التي يستشهد بها على تأسيسها ﷺ لمبدأ المواطنة، ما جاء في اتفاقية الصلح التي عقدها عليه الصلاة والسلام مع نصارى نجران.

((بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما كتب محمد النبي رسول الله ﷺ لنجران إذ كان عليهم حكمه في كل ثمرة، وكل صفراء، وبيضاء، وسوداء، ورقيق، وأفضل عليهم، وترك ذلك كله على ألفي حلة من حلل الأواقي، في كل رجب ألف حلة، وفي كل صفر ألف حلّة، ومع كل حلّة أوقية من الفضة، فما زادت على الخراج، أو نقصت عن الأواقي فبالحساب، وما قضوا من دروع، أو خيل، أو ركاب، أو عروض أخذ منهم بالحساب، وعلى نجران مؤنة رسلي ومتعتهم ما بين عشرين يومًا فدونه، ولا تحبس رسلي فوق شهر، وعليهم عارية ثلاثين درعًا، وثلاثين فرسًا، وثلاثين بعيرًا إذا كان كيد، ومعرة، وما هلك مما أعاروا رسلي من دروع، أو خيل، أو ركاب فهو ضمان

على رسلي حتى يؤدوه إليهم، ولنجران، وحاشيتها جوار الله، وذمّة محمد النذبي على أنفسهم، وملتهم، وأرضهم، وأموالهم، وغائبهم، وشاهدهم، وعشيرتهم، وبيعهم، وأن لا يغيروا مما كانوا عليه، ولا يغيروا حقًّا من حقوقهم، ولا ملتهم، ولا يغيروا أسقفًا عن أسقفيته، ولا راهبًا من رهبانيته، ولا واقهًا من وقيهاه، وكل ما تحت أيديهم من قليل، أو كثير، وليس عليهم دنية، ولا دم جاهلية، ولا يحشرون، ولا يعشرون، ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل فيهم حقًّا فبينهم النصف غير ظالمين، ولا مظلومين بنجران، ومن أكل ربا من ذي قبل، فذمتي منه بريئة، ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر، وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله عز وجل، وذمة محمد رسول الله ﷺ لم أبدًا حتى يأتي الله بأمره، ما نصحوا، وأصلحوا فيما عليه، غير مثقلين بظلم، شهد أبو سفيان بن حرب، وغيلان بن عمرو، ومالك بن عوف من بني نصر، والأقرع بن حابس الحنظلي، والمغيرة))[46].

وكتب لهم هذا الكتاب عبد الله بن أبي بكر –رضي الله عنهما-.

فهم في جوار الله، وذمة محمد ﷺ، والذي يتجسد في حماية أموالهم وأنفسهم وملّتهم وعشيرتهم وبيعتهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير[47].

يقول ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «في القصة جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين، وفيها تمكين أهل الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين وفي مساجدهم أيضا إذا كان ذلك عارضًا، ولا يمكنون من اعتياد ذلك[48]، وفي هذا جواب على من يظن أنّ الحياة صراعٌ مع البشر الذين يخالفونهم في الدين أو العقيدة أو الفكرة.

الخاتمة:

وفي خاتمة هذا البحث أسجل ما يأتي:

- المواطنة كمفهوم يحاكي الفكرة موجودة بشدة في نصوص القرآن والسنة النبوية المطهرة والفقه الإسلامي في نصوصه التأسيسية الأولى.

- غياب مفهوم المواطنة في السياق اللغوي لا يعني غيابه في السياقين الثقافي والمعرفي.

- المنكرون لوجود مفهوم المواطنة في الفكر الإسلامي لم يحرروا محل النزاع ولم يفرقوا بين المصطلح الذي يحاكي اللفظ وبين المفهوم الذي يحاكي الفكرة.

- المواطنة في الإسلام لا تقوم على أساس العقيدة أو القرابة وإنّما تتكون من عنصرين أساسيين هما:

1 - **الأول:** هو الانتماء إلى الإقليم،

2 - **والثاني:** هو الوفاء بالالتزام.

وتبنى على قاعدتين أساسيتين هما:

الأولى/- هي التجانس الاجتماعي المجرد من الطائفية والعنصرية وكلّ ما من شأنه أن يشقّ الصف ويهد الوحدة الاجتماعية.

والثانية/- هي سعي الجميع لتحقيق أهداف المجموعة الاجتماعية.

- تعد وثيقة المدينة أووثيقة تاريخية تؤسس لمفهوم المواطنة.

- تحقق المواطنة في الإسلام بين مكونات المجتمع المدني المساواة في الحقوق والواجبات وأمام القانون بغض النظر عن الدين والعرق واللغة.

ثبت المصادروالمراجع:

1 - باللغة العربية:

-ابن القيم الجوزية، إعلام الموقعين، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت.

-ابن منظور، لسان العرب، دار صادربيروت.

-أحمد قائد الشعبي، وثيقة المدينة المضمون والدلالة، كتاب الأمة الإصدار العدد 110، ط 2006

-إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي، الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية.

- البيهقي، في دلائل النبوة

جوردن ماشال، موسوعة علم الاجتماع، المجلس الأعلى للثقافة، ترجمة محمد الجوهري وآخرون، ط 2000.

-الجوهري، معجم الصحاح، مادة وطن.

- راشد الغنوشي، الحريات العامة في الدولة الإسلامية.

- عبد الجليل أبو المجد، مفهوم المواطنة في الفكر العربي الإسلامي، إفريقيا الشرق، ط 2010.

- عبد الحق حميش، فقه المواطنة في أصول الشريعة ومقاصدها، دار أوراق ثقافية للنشروالتوزيع، 2017.

- عبد الله عليان، الأمّة والدولة والمواطنة في الفكر الإسلامي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط 2014.

- عثمان صالح العامر، حقوق الانسان بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي، بحث المواطنة في الفكر الغربي المعاصر «دراسة نقدية من منظور إسلامي»، ط الأكاديميون للنشروالتوزيع.

- عجيل جاسم النشمي، الوطن والوطنية في ميزان الشريعة الإسلامية، بحث مقدم إلى رابطة علماء الشريعة بدول مجلس التعاون الخليجي، 2010.

- عطية عبد الحليم صقر، المواطنة في الإسلام (واجبات وحقوق) دراسة تأصيلية تحليلية، دون طبعة.

- علاء الدين عبد الرزاق جنكو، المواطنة بين السياسة الشرعية والتحديات المعاصرة.

- علي الحد المحمد الصالحي، الضوء المنير على التفسير، ط مؤسسة النور للطباعة والتجليد

- علي ليلة، المجتمع المدني العربي قضايا المواطنة وحقوق الإنسان، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 2013.

- عماد الدين محمد الرشيد، المواطنة في المفهوم الإسلامي، مطبعة نحو القمة للطباعة والنشر، ط 2005.

- عمر بن دحمان، المواطنة في الفقه الإسلامي، دراسة تأصيلية تطبيقية، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2012/ 2013.

- محمد بن عبد الباقي، شرح الزرقاني على الموطأ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1996.

- محمد سليم العوا، النظام السياسي للدولة الإسلامية، دار الشروق القاهرة، 1989.

- محمد منصور، المواطنة والهوية في عالم متغير، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 2016.

- وهبة الزحيلي، المواطنة في المنظور الإسلامي.

- يوسف القرضاوي، الوطن والمواطنة في ضوء الأصول العقدية والمقاصد الشرعية.

2 - باللغة الأجنبية:

-Encyclopedia. Boor International.
nnica. Inc. The New Encyclopedia
peered britanica. Vd

الهوامش:

(1) د. صحراوي مقلاتي، فقه المواطنة، أوراق ثقافية للنشر والتوزيع الجزائر، ط1، سنة 2017، ص 8.

(2) الجوهري، معجم الصحاح، مادة وطن، 2/ 285.

(3) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، 1968، 13/ 451

(4) د. عبد الحق حميش، فقه المواطنة في أصول الشريعة ومقاصدها، دار أوراق ثقافية للنشر والتوزيع 2017، ص16

(5) د. علي ليلة، المجتمع المدني العربي قضايا المواطنة وحقوق الإنسان، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 2013، ص80.

(6) المرجع نفسه، ص 80

(7) جوردن مارشال، موسوعة علم الاجتماع، المجلس الأعلى للثقافة، ترجمة محمد الجوهري وآخرون، ط 2000، ص 1411.

(8) د. محمد منصور، المواطنة والهوية في عالم متغير، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 2016، ص 11.

(9) د. عطية عبد الحليم صقر، المواطنة في الإسلام (واجبات وحقوق) دراسة تأصيلية تحليلية، دون طبعة، ص 13.

(10) عبد الجليل أبو المجد، مفهوم المواطنة في الفكر العربي الإسلامي، إفريقيا الشرق، ط 2010، ص 13

(11) د. عثمان صالح العامر، حقوق الانسان بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي، بحث المواطنة في الفكر الغربي المعاصر «دراسة نقدية من منظور إسلامي»، ط الأكاديميون للنشر والتوزيع، ج1، ص 379.

(12) المرجع نفسه، ص 382.

(13) المرجع نفسه، ص 372.

(14) د. إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي، الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية، ص437، 438.

(15) Encyclopedia. Boor International. nnica. Inc. The New Encyclopediapeeredbritanica. Vd. 20 pp.

(16) محمد سليم العوا، النظام السياسي للدولة الإسلامية، دار الشروق القاهرة، 1989، ص 50.

(17) ماهر عيد، صحيفة المدينة رؤية أخلاقية، مقال في مجلة صحيفة المدينة ومبادؤها، إصدار وزارة الشؤون الدية التونسية، سنة 2017، ص 251.

(18) عطية عبد الحليم صقر، المواطنة في الإسلام حقوق وواجبات دراسة تأصيلية تحليلية. بحث، ص 21.

(19) د. عماد الدين محمد الرشيد، المواطنة في المفهوم الإسلامي، مطبعة نحو القمة للطباعة والنشر، ط 2005، ص 10-9.

(20) د. عمر بن دحمان، المواطنة في الفقه الإسلامي، دراسة تأصيلية تطبيقية، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2012/2013، ص 121. وانظر: د. راشد الغنوشي، الحريات العامة في الدولة الإسلامية، ص 8.

(21) ك. جورجيو، نظرة جديدة في سيرة الرسول-صلى الله عليه وسلم-، ص 192.

(22) عجيل جاسم النشمي، الوطن والوطنية في ميزان الشريعة الإسلامية، بحث مقدم إلى رابطة علماء الشريعة بدول مجلس التعاون الخليجي، 2010، ص 3.

(23) عبد الجليل أبو الجد، مرجع سابق، ص 104.

(24) عجيل جاسم النشمي، المرجع الأسبق، ص 3.

(25) عبد الجليل أبو المجد، المرجع الأسبق، ص 104.

(26) د. علاء الدين عبد الرزاق جنكو، المواطنة بين السياسة الشرعية والتحديات المعاصرة، بحث، ص، 40-39.

(27) وممن قال بذلك عبد المجيد أبو الجد، مرجع سابق، ص 12، والدكتور محمد منصور، المواطنة والهوية في عالم متغير، مرجع سابق، ص22، 23، 24.

(28) د. عبد الحق حميش، فقه المواطنة، مرجع سابق، ص 26

(29) سورة البقرة الآية 126

(30) أخرجه أحمد (4/ 305 ، رقم 18737)، والترمذي (5/ 722 ، رقم 3925) وابن ماجه (2/ 1037 ، رقم 3108).

(31) محمد بن عبد الباقي، شرح الزرقاني على الموطأ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1996، ج4، ص288.

(32) عبد الله عليان، الأمّة والدولة والمواطنة في الفكر الإسلامي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط 2014، ص34

(33) وهبة الزحيلي، المواطنة في المنظور الإسلامي، بحث، ص 4.

(34) المرجع نفسه، ص 42 - 43 - 4 4.

(35) د. وهبة الزحيلي، المواطنة في المنظور الإسلامي، بحث، ص 5

(36) ابن القيم الجوزية، إعلام الموقعين، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، ج 2 ص 2.

(37) سورة النساء من الآية 28

(38) سورة النساء الآية رقم 13.

(39) د. عبد الحق حميش، المواطنة في الإسلام، مرجع سابق.

(40) د. عمر بن دحمان، المواطنة في الفقه الإسلامي، دراسة تأصيلية تطبيقية، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2012 /2013، ص 121. وانظر: د. راشد الغنوشي، الحريات العامة في الدولة الإسلامية، ص 94، 95.

(41) د. يوسف القرضاوي، الوطن والمواطنة، مرجع سابق، ص 21.

(42) المرجع نفسه، ص 21

(43) عمر بن دحمان، المواطنة في الفقه الإسلامي، مرجع نفسه ص 49.

(44) أحمد قائد الشعبي، وثيقة المدينة

المضمون والدلالة، كتاب الأمة الإصدار العدد 110، ط 2006، ص 42

(45) د. عمر بن دحمان، حقوق المواطنة في الفقه السياسي الإسلامي دراسة تأصيلية تطبيقية، المرجع السابق، ص 125.

(46) رواه البيهقي في دلائل النبوة.

(47) د. يوسف القرضاوي، الوطن والمواطنة في ضوء الأصول العقدية والمقاصد الشرعية، ص 23 - 24.

(48) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد. علي المحمد الصالحي، الضوء المنير على التفسير، ط مؤسسة النور للطباعة والتجليد، تفسير سورة آل عمران، ص 67..